سرّ الرائحة

"سر الرائحة"، قصة أطفال للكاتب هاني السالمي، صدرت في العام 2008 عن منشورات مركز أوغاريت الثقافي في رام الله- فلسطين، وتقع القصة، الّتي صمم غلافها ورسوماتها جاد سلمان، في 43 صفحة من الحجم الكبير، وجاء فيها خمسة عناوين، كلّ عنوان منها يكاد يشكلّ قصة منفصلة، وهي: "الربيع يهرب من الأشجار"،، و"صباح ساخن جدًّا"، و"المسرح له حضور"، و"تحت الشجرة القديمة"، و"نهاية لا تتأخر". ومنذ البداية أعطاها الكاتب اسم "سر الرائحة".

مضمون القصة

تتحدث القصة عن قرية وادعة، تنمو فيها الزهور والأشجار المثمرة، وتتحلى بجمال طبيعي خلّاب، وذات ربيع بدأ سكانها يشمّون رائحة

obeikandl.com

كريهة، وبعضهم فقد وعيه جراء ذلك، واتسعت دائرة الضرر لتشمل غالبية سكان القرية، كما بدأت الأزهار والأشجار تذبل، ويميل لونها إلى السواد، إلى أن جفّت، واستعانوا بدائرة البيئة الّتي اكتشف موظفوها أن صندوقًا حديديًّا، مدفونًا تحت شجرة، وبدأ الصدأ يدب في أطرافه، وكانت المشكلة في هذا الصندوق الذي يحتوي على مواد سامّة دفنها غرباء.

ومن خلال هذا الموضوع، يتضح لنا أن الكاتب يرمي إلى ضرورة الحفاظ على البيئة، وعدم دفن المواد السامّة فيها. ومن المعروف مثلًا- كما ذكرت وسائل الإعلام أكثر من مرة- أن المحتلين الإسرائيليين، يقومون بدفن نفاياتهم الكيماوية في أراضي الضفة الغربية، كما أن مجاري المستوطنات تلوث البيئة في الضفة الغربية أيضًا، كما أن بعض الدول الغربية تقوم بدفن نفاياتها الكيماوية والذرية في أراضي بعض الدول النامية، أو على شواطئ هذه الدول، أو في أعماق البحار، حتى أن مصادر صومالية مقربة من قراصنة البحر الذين ظهروا في الأشهر القليلة الماضية، عزوا فعل القرصنة هذا، لمنع السفن الأجنبية من الاقتراب من شواطئهم المائية، لأنها تلقي نفايات سامّة هدّدت الثروة السمكية، ويبدو أن الكاتب متأثر بذلك، وكتب قصته من هذه الخلفية.

البناء القصصي

واضح أن الكاتب استعمل كثيرًا الاسترجاع flash back ، وفي بعض الأحيان لم يوفق في تنمية وتسلسل الحدث، فمثلًا عندما أصيب الطفل سامي بالإغماء قال بعد أن أفاق: "شعرت بأني أركب أرجوحة تدور برأسي في كلّ اتجاه، وبأني أسقط من فوقها" (ص13)، وفي تفسيره لذلك يقول: "قبل أن يُغمى عليّ، شممت رائحة كريهة، وربما هي الّتي جعلتني أفقد الوعي، بعض الأطفال أكدّ أنه شمّ الرائحة، وبعضهم لم يفعل" (ص13).

وفي سياق الحدث جاء في الصفحة (15): "عصافير الحديقة لم تعد تغرّد، وقلّت حركتها فوق الأشجار، والضفادع لم تعد تظهر، ولا يعلو لها صوت، والنحل غاب طنينه حول الزهور".

وعلى نفس السياق جاء الحديث عن الرجل الطيب نظمي: "سمع صوتًا يناديه من الخارج فأسرع إليه، بادره أحد جيرانه: هناك حالات إغماء كثيرة، والرائحة تزداد انتشارًا، وتصل إلى كلّ مكان، الخوف ينتشر في القرية، النساء يبكين، والأطفال خائفون من الذهاب إلى المدرسة".

وفي محاولة من الكاتب لإطالة القصة، لجأ إلى الخرافة، مع أن أحداث قصته واقعية، والتلوّث واقعي أيضًا، وذلك من خلال الكابوس الذي رآه الطفل سامي، في الحلم، ورؤيته لوحش يبتلع كلّ ما هو أمامه، وفي

هذا الحلم "تذكّر عجوز القرية الحكيمة وعكازيها البنيين، كانت تقول إن شجرة التوت تخفي سرًّا خطيرًا، وكانت تشير إلى جذعها، ثم ترسم دائرة وتؤكد أن السرّ مدفون داخلها، قالت العجوز قبل أن تموت: "حاولوا أن تقتلعوا شجرة التوت" (ص34).

وفي تقديري أن لجوء الكاتب إلى الحلم وإلى عجوز القرية الحكيمة لم يكن موفقًا، فالتلوث واقع، ولا يحتاج إلى أحلام، أو إلى حكماء، أو عرّافين، لتفسيره وتحديد موقعه.

اللغة

لغة الكاتب جميلة وسليمة، مع أنه وقع في هفوة بسيطة مثل قوله عن الطفل سامي: "لاحظ الخلد الصغير يطل من أحد الثقوب" (ص33)، والصحيح هو جحور وليس ثقوب، فالثقب صغير جدًّا مثل ثقب الإبرة. وكذلك الأمر: "خرج سامي من الثقب" (ص34).

الفوائد المستوحاة من القصة

لا أدري لماذا ألحّ على ذاكرتي أن الكاتب ربما كتب قصته لتقديمها إلى إحدى المسابقات الّتي ترعاها بعض المؤسسات الإقليمية والعالمية للدعوة إلى الحفاظ على البيئة، وبغض النظر عن ذلك، فإن القصة احتوت على عدة أمور تربوية وتعليمية منها:

- الدعوة إلى الحفاظ على النظافة، وعلى البيئة بشكل عام.

- تلوث البيئة يلحق الضرر بالأحياء عامّة من إنسان وحيوان ونبات.

- التكامل الطبيعي في الحياة بين الأحياء من إنسان ونبات وطيور، وحتى الحشرات.

- الذباب ينقل الأمراض.

- النحل مفيد لإنتاج العسل، والعسل مفيد لعلاج بعض الأمراض.

- الضفادع تأكل الحشرات الضّارّة.

- زقزقة العصافير تبعث الراحة والسعادة في النفوس.

- علاج مخلفات المصانع ليس بدفنها في الأرض.

- للفنون، وللمسرح- تحديدًا- فوائد جمّة.

الرسومات

في تقديري أن الرسومات غير مناسبة، ولا علاقة لها بمضمون القصة، وغير مفهومة للأطفال أو الكبار.

جيل القصة

اللغة المستعملة في القصة، وطريقة سردها، غير ملائمة للأطفال، وهي تصلح للفتيان وللكبار.

(ج.س)